بسم الله الرحمن الرحيم

١٤ ـ سورة إبراهيم

سمّيت به لاشتمالها على دعوات لإبراهيم عليه السلام ، تمت بهذه الملة . كالحج وجعل الكعبة قبلة الصلاة ، مع الدلالة على عظمتها ، بحيث صارت من المطالب المهمة للمتفق على غاية كمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعلى نبوّة نبيّنا عليه أكمل التحيات وأفضل التسليمات مع غاية كماله ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن ! أفاده الهايمىّ .

وهى مكية النزول ، قيل : إلّا قوله تعالى[1] « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... » الآيتين . وهى اثنتان وخمسون آية ،

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)

« الر كِتَٰبٌ » خبر لـ (الر) على كونه مبتدأ. أو خبر لمحذوف على كونه خبرًا لمضمر، أو مسرودًا على نمط التعديد. وقوله تعالى : « أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ » صفة له « لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ » أى : من الضلال إلى الهدى « بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أى : أمره . وقوله تعالى : « إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ » بدل من قوله (إِلَى ٱلنُّورِ) بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل: إلى أى نور؟ فقيل: إِلَىٰ صِرَٰطِ ... الخ . و (ٱلْعَزِيزِ) الذى لا يغالَب ولا يمانع بل هو القاهر القادر. و (ٱلْحَمِيدِ) المحمود فى أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

«ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ» قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان لـ (ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) « وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ » أى : بما أنزلناه إليك « مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » يوم القيامة وهو عذاب النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ)

« ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأٓخِرَةِ » أى : يؤثرونها عليها « وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » بتعويق الناس عن الإيمان « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة، أو يبغون لها اعوجاجاً، أى يطلبون أن يروا فيها عوجًا قادحًا ، على الحذف والإيصال «أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ» أى : ضلّوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل، والبعد فى الحقيقة للضالّ نفسه، وصف به فعله للمبالغة، بجعل الضلال نفسه ضالًّا . وفى إيثار الظرف على (أولئك ضالّون ضلالًا بعيداً) دلالة على تمكّنهم فيه، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة فى إثبات وصف الضلال .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

«وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» أى: ليفقهوا عنه مايدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به كما قال[1] (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ) . (فإن قلت): لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)[2] بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة، فلغيرهم الحجة.

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] .

وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً . (قلت) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحدٍ منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ؛ فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع مافى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم فى تعلّم لفظه وتعلّم معانيه ، وما يتشعّب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القُرَب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلًّا بصفة الإعجاز فى كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربىّ كل أمة بلسانها ، كما كلم أمته التى هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه ـ كذا فى (الكشاف) .

وقال بعض المحققين : يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبىّ ﷺ كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا . لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويُعِدّها لتهذيب الأمم الأخرى . كما يعد فرداً واحداً منها لتهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هى المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل فى ذلك العالم المظلم ـ فقد وجب أن التهذيب الإلهىّ ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيّأ لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، ولله فى خلقه شؤون اهـ .

تنبيه :

استدل بالآية مَنْ ذهب إلى أنّ اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفيّة لم تعلم إلّا بعد مجىء الرسول ، والآية صريحة فى علمها قبله .

وقوله تعالى : « فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ » أى لمباشرته أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف . « وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ » لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . و (الفاء) فصيحة، كأنه قيل : فبيّنوه، فأَضَلَّ الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كلّ رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سنته ، أمر محقق غنىّ عن الذكر والبيان « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى : فلا يغالَب ، ولا يقضى إلّا بما فيه الحكمة .

ثم أشير إلى تفصيل ماأجمل فى قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ) بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ » أى : أنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ، لحروبها وملاحمها ، لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه نعماؤه عليهم ، فتكون الآية بعدها تفصيلًا لها . وقيل : هى أعمّ من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى، فيما أراه، لاختصاص كل آية بمقام، والتأسيس خير من التأكيد. وفى الالتفات من التكلم إلى الغيبة، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر بن العربىّ : هذه الآية أصل فى الوعظ المرقق للقلوب .

« إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى : فى التذكير بها « لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » أى : يصبر على بلائه ويشكر نعماءَهُ . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أوأفاض عليهم من النعم، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد (لكلّ مؤمنٍ) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم (الصبّار) على (الشكور) لتقدم متعلق الصبر ـ أعنى الإيمان ـ على متعلق الشكر ـ أعنى النعماء ـ وكون الشكر عاقبة الصبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ، وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » أى : يبغونكم إياه « وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ » أى: المولودين صغارًا « وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ » أى: يبقونهن فى الحياة « وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » الإشارة إلى فعل آل فرعون . ونسبتُه إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيلَ : كونُ قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر. وأما استحياء النساء، وهن البنات أى استبقاؤهن، فلأنهم كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهُنّ دون البنين رزية فى نفسه كما قيل :

ومن أعظمِ الرُّزْءِ فيما أَرَى بقاءُ البناتِ وموتُ البَنِينَا

ويجوز أن تكون الإشارة إلا الإنجاء من ذلك . و (البلاء) الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشرىّ : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ، قال تعالى[1] : (وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً) . وقال زهير :

* فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو * انتهى .

ولذا جوّز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرّ ، الشامل للنعمة والنقمة .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] .

لطيفة :

أشار أهل المعانى إلى نكتة مجىء (وَيُذَبِّحُونَ) هنا بالواو ، وفى سورة البقرة[1] (يُذَبِّحُونَ) وفى الأعراف[2] (يُقَتِّلُونَ) بدونها . والقصة واحدة ـ بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال. وحيث عطف ـ كما هنا ـ لم يقصد ذلك. والعذاب، إن كان المراد منه الجنس، فالتذبيح، لكونه أشدّ أنواعه، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة، فهما متغايران والمحلّ محلّ العطف. وجوّز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير ـ لكونه أوفى بالمراد وأظهر ـ بمنزلة المغاير، فلذا عطف .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ » أى : آذن وأعلم إعلاماً بليغاً ـ من جملة ما قال موسى لقومه « لَئِن شَكَرْتُمْ » أى : نعمه ، بصرفها إلى ماخُلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه « لَأَزِيدَنَّكُمْ » أى : من النعم « وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشدّ النقم .

---

(١) [٢ / البقرة / ٤٩] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٤١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ)

« وَقَالَ مُوسَىٰٓ » أى : لقومه « إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ » أى : غنىٌّ عن شكر عباده ، المحمود بأجلّ المحامد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب (إنْ) أى : إن تكفروا لم يرجع وباله إلّا عليكم . فإن الله لغنىّ عن شكر الشاكرين .

وفى (صحيح مسلم)(١) عن أبى ذرّ ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ ؛ أنه قال : « يا عبادى ! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ! لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً . ياعبادى لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحدٍ فسألونى فأعطيت كل إنسان مَسْأَلَتَه ، ما نقص ذلك مما عندى إلّا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ » ، فسبحانه من غنىٍّ حميد . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ، جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ » أى : فى مؤاخذة من كفر « نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ »

(١) أخرجه مسلم فى ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، ١٥ ـ باب تحريم الظلم ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) من حديث طويل عظيم جدًّا فاقرأه .

أى : مع كثرتهم « وَعَادٍ » أى مع غاية قوتهم « وَثَمُودَ » مع كثرة تحصنهم وصنائعهم «وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

قال ابن جرير[1] : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعنى : وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصّه عليهم ، ولا شك حينئذٍ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة والله أعلم .

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ » جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف (الذين) على قوم نوح) ، و (لا يعلمهم . . .) الخ اعتراض ، ومعنى الاعتراض ، على الثانى : ألم يأتكم أنباء الجمّ الغفير الذى لا يحصى كثرة فتعتبروا بها؟ إنّ فى ذلك لمعتبرًا . وعلى الأول ، فهو ترق ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : « فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ » يحتمل الأيدى والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين ، وأن يكونا من مجاز الكلام . وفى الأول وجوه :

أى : ردوا أيديهم فى أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله[2] : (عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) . أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء : أن يكفّوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٧ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١١٩] .

إلى أفواه الرسل أن : اسكتوا . و (فى) بمعنى (إلى) . أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام أو أنهم أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم. ومن بالغ فى منع غيره من الكلام ، فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) أى : هذا جوابنا الذى نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع فى كلام المتخاطبين ، أنهم يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل: وهو أقوى الوجوه المتقدمة. لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا فى الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب . وفى تصديرهم الجملة بـ(أن) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك ، مبالغة فى التأكيد .

وفى الثانى ـ أعنى المعنى المجازىّ ـ وجوه :

قال أبو مسلم الأصفهانىّ : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم، والإنعام يسمى يداً ، يقال لفلان عندى يد إذا أولاه معروفاً؛ وقد يذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . فالبينات التى كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نِعَمٌ وأيادٍ ، وأيضاً العهود التى كانوا يأتون بها مع القوم أيادٍ؛ وجمع اليد فى العدد القليل هو الأيدى ، وفى العدد الكثير الأيادى . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدى . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ، فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ؛ ونظير قوله تعالى[2] : (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ)؛ فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًّا فى الأفواه . انتهى .

---

(١) [٤٨ / الفتح / ١٠] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

وفى (الرازىّ) تتمة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال فى (العناية) : فإن قلت : قولهم (إِنَّا كَفَرْنَا) جزم بالكفر لا سيما وقد أكّد بـ (إن) ، فقولهم (وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ) ينافيه . قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أى أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزمًا فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه. وأيًّا ما كان، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافى الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلًا . انتهى .

أى : فلا ينافى شكّهم فى ذلك كفرهم القطعىّ بالأول .

وقوله تعالى « مُرِيبٍ » بمعنى موقع فى الريبة ، من (أرابه) أوقعه فيها ؛ أو ذى ريبة، من (أراب) : صار ذا ريبةٍ وهى صفة مؤكدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى : وهو ممّا لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أفى وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضرورىّ فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض ـ أى الذى خلقهما وابتدعهما

على غير مثالٍ سبق ـ فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلابدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلّا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثانى : أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولايستحق العبادة إلّا هو وحده لاشريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقرّبهم من الله زلفى . انتهى .

وسبق لنا فى سورة الأعراف البحث فى أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفى إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لايكاد يتوهم فيه الشك أصلًا ، وفى العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : (أَأَنتُمْ فِى شَكٍّ مُرِيبٍ مِنَ ٱللَّهِ) مبالغة فى تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول .

وقوله تعالى : « يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ » أى: يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم (مما تدعوننا إليه) . ولام (ليغفر) متعلقة بـ (يدعو) أى : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعالى وتقدّس ، أو للتعدية أى : يدعوكم إلى المغفرة : كقولك : دعوتك لزيد . و (من) إمّا تبعيضيّة أى : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة ، على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها فى الإيجاب ، أو للبدل أى : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين (يغفر) معنى (يخلص) .

وادعى الزمخشرىّ مجيئه بـ (من) هكذا فى خطاب الكافرين دون المؤمنين فى جميع القرآن . قال : وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد .

قال فى (الكشف) : وللتخصيص فائدة أخرى وهى التفرقة بين الخطابين بالتصريح

بمغفرة الكل وإبقاء البعض فى حق الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتكلوا على الإيمان .

وقوله تعالى : « وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : يمتعكم متاعًا حسناً إلى أجل مسمّى « قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى : آية مما نقترحه تدل على فضلكم علينا بالنبوّة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

«قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ »أى: بالرسالة والنبوّة «وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى: بأمره وإرادته، وهو لم يرد ذلك، لقوله[1]: (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ) .

«وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » قال الزمخشرىّ: أمرٌ منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًّا وأمَرُوها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله فى الصبر على معاندتكم وما يجرى علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ » ومعناه : وأىّ عذر لنَا فى أن لا نتوكل عليه

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] .

« وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا » أى : أرشد كلاً منّا سبيله ومنهاجه الذى شرع له ، وأوجب عليه سلوكه فى الدين . وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسمىّ ، مظهرين لكمال العزيمة : « وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا » أى : من الكلام السّيّئ والأفعال السخيفة. وقوله «وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه ، لأن مقام الدعوة يقتضيه . ولذا أعيد ذكره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

[١٤] (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ».

« وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ » يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفى من بين أظهرهم ، أو العود فى ملتهم . والمعنى : ليكونن أحد الأمرين .

والسبب فى هذا التوعد ـ كما قال الرازىّ ـ أن أهل الحقّ فى كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين. والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين. فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا فى ملة الكفر قبلُ. أجيب: بأن (عاد) بمعنى صار. وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى، أو الكلام على ظنهم وزعمهم

أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسل ولقومهم ، فغلبوا عليهم فى نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : « فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ . . . » الخ وعد صادق للرسل ، وبشارة حقة . كما قال تعالى[١] : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) وقال تعالى[٢] : (وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا) والآيات فى ذلك كثيرة . والإشارة فى (ذلك) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله (لِمَنْ خَافَ . . .) الخ أى : للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله[٣] (وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ). و (المقام) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه . أومصدر ميمىّ ، بمعنى : حفظى وقيامى لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالى . وياء المتكلم فى (وعيدِ) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها فى غير الوقف .

قال السمين : أثبت الياءَ ـ هنا وفى (ق) فى موضعين[٤] : (كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)[٥] (فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) ـ وصلًا ، وحذفها وقفاً ـ ورشٌ عن نافع . وحذفها الباقون وصلًا ووقفاً .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)

«وَٱسْتَفْتَحُوا۟» أى : سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم .

---

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ ـ ١٧٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٢٨] و ٢٨ / القصص / ٨٣] .
(٤) [٥٠ / ق / ١٤] . (٥) [٥٠ / ق / ٤٥] .

من (الفتاحة) وهى الحكومة كقوله[1]: (رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ)؛ فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة ، وقيل: للفريقين. فإنهم سألوا أن ينصر المحقّ ويهلك المبطل. وقوله: «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أى: فنصروا عند استفتاحهم وأفلحوا (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد . أو استفتحوا جميعاً فَنَصَرَ الرسلَ وأَنْجَزَ لَهُمُ الوعد ، وخاب أعداؤهم . و (الجبار) المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و (العنيد) المعاند للحقّ ، كخليط بمعنى مخالط .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ)

«مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ» جملة فى محل جر صفة لـ (جبار) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أى : من وراء حياته وانقضاء عمره . « وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ » وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ)

« يَتَجَرَّعُهُۥ » أى : يتكلف تجرعه لقهره عليه «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ» لخبثه «وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » أى : تحيط به أسبابه من الأهوال ، وما هو بمستريح مما نزل به « وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى : شديد متصل لا ينقطع .

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ)

«مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ، أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ» المثل مستعار للصفة التى فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتى كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها ـ كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان ، فى حبوطها ـ لكونها على غير تقوى وإيمان ـ برماد طيرته الريح العاصف . وقوله تعالى (لَّا يَقْدِرُونَ ...) الخ مستأنف فذلكة للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه ، أى : لايقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شىء منها ، أى لايرون له أثرا من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير فى الريح ، على شىء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أن لها عقوبات هائلة ، للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى . وفيه تهكم بهم . وفى توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

(واشتد به) من (شدّ) بمعنى عدا والباء للتعدية أو للملابسة . أو من (الشدة) بمعنى القوة أى : قويت بملابسة حمله . و (العصف) قوة هبوب الريح . وصف به زمانها على الإسناد المجازىّ كـ (نهاره صائم) . وخبر (مثل) محذوف أى : فيما يتلى عليكم . وجملة (أعمالهم كرماد) مستأنفة جوابا لسؤال : كيف مثلهم ؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل) و (كرماد) الخبر .

وهذه الآية كقوله تعالى[1]: (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً) وقوله تعالى[2]: (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٣] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٧] .

حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) وقوله تعالى[1]: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ، لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)

[٢٠] (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ » الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته. أو لكل أحد من الكفرة لقوله (يذهبكم) ، والرؤية رؤية القلب .

وفى الآية وجهان من التأويل : أحدهما أنها سيقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس. أى أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها ومافيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ؛ وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها[2] (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ، بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى[3]: (أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٤] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .
(٣) [٣٦ / يس / ٧٧ـ٨١] .

مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) .

الوجه الثانى : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أى : إن يشأ يهلكم إذا خالفتم أمره ، ويخلق قوماً خيراً منكم كقوله تعالى[١] : (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم) وقوله[٢] : (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) .

وقوله تعالى : « بِالْحَقِّ » أى : بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله[٣] : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا) وقوله[٤] : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) وقوله[٥] : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) وذلك ليتفكر فى خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين فى المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)

«وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً» أى: اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة فى براز من الأرض،

---

(١) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣٨] . (٢) [٤ / النساء / ١٣٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩١] .
(٤) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٥) [١٠ / يونس / ٥] .

وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً، أو برزوا من قبورهم أى : ظهروا لذلك « فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ » وهم الأتباع «لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ» أى : على الرسل وهم قادتهم ـ توبيخاً لهم ـ « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً » أى : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا « فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ» أى : بعض الإغناء . « قَالُواْ » أى : المستكبرون «لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ» إحالة ، لضلالهم وإضلالهم ،على مقامه سبحانه، أولو هدانا باُهتدائنا، ولكن زغنا فأزاغنا كما قال تعالى[1]: (فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ)«سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ» أى: مَنجى ومهرب من العذاب ؛ ونظير الآية قوله تعالى[2] : (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها لآية[3] : (وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ ٱلنَّارِ) .

ولا يخفى أن الآية فى هذه السورة تصدق بالتخاصم فى الموقف وفى النار ، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها لكون ذلك فى النار فقط، كما ادّعاه. وربما كان قوله (وَبَرَزُواْ) يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله (عِندَ رَبِّهِمْ) وقوله (فِى ٱلنَّارِ) . ويجوز أن يكون مرة واحدة. والمراد بـ (ٱلنَّارِ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأىّ عذاب !

---

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٣١] .
(٣) [٤٠ / غافر / ٤٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ، فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ، مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ، إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ، إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ » وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء «إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ » أى : على ألسنة رسله بأن فى اتباعهم النجاة والسلامة، أى: فوفى به وأنجز « وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ » أى : ووعدتكم وعد الباطل ، وهو أن لا بعث ولا جزاء . ولئن كان، فالأصنام شفعاؤكم. ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه . والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه، أو مشاكلة. وفى الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك . حيث حذف أولًا (فوفى به) لدلالة قوله بعدُ (فَأَخْلَفْتُكُمْ) عليه لأنه مقابله ، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة (وَعْدَ ٱلْحَقِّ) .

« وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ » أى حجة وبرهان « إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى » أى : أسرعتم لطاعتى بمجرد ذلك ، أى وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه « فَلَا تَلُومُونِى » أى : بوعدى إياكم ، إذ لم يكن بطريق القسر « وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم » أى : حيث استجبتم لى باختياركم ، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا ربكم ، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج .

قال القاشانىّ : لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنوّر بنوره، أسلم وأطاع وصار محقًّا عالمًا بأن الحجة لله فى دعوته للخلق إلى الحق، لا له . ودعوته إلى الباطل بتسويل الحطام

وتزيين الحياة الدنيا عليهم ـ واهية فارغة عن الحجة. وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث ، حقٌّ قد وفى به . ووعدى بأن ليس إلّا الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلّا لمن قبلَ الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكى فى (الإكليل) عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هـذا إبطال التقليد فى الاعتقاد. قال : وهو انتزاع حسن. لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه، ولم يطلبوا منه برهاناً. فحكى الله قوله تقبيحاً لذلك الفعل منهم . انتهى .

«مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ» أى : بمغيثكم ومنجيكم من العذاب «وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ» أى : مما أنافيه . قال ابن الأعرابىّ : الصارخ: المستغيث ، والمصْرِخ : المغيث، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته أغثته . فالهمزة للسلب . يعنى أزلت صراخه، وهومدّ الصوت. «إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» أى: كفرت اليوم بإشراكم إياى من قبل هذا اليوم ـ أى فى الدنيا ـ يعنى : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة كقوله تعالى[1]: (وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) وقوله[2](وإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ) وقوله[3] : (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . « إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ابتداء كلام منه تعالى ، أو تتمة كلام الشيطان .

قال الزمخشرىّ: وإنما حكى الله عزّ وعلا ماسيقوله فى ذلك الوقت، ليكون لطفاً للسامعين فى النظر لعاقبتهم والاستعداد لمالابدّ لهم من الوصول إليه وأن يتصوروا فى أنفسهم ذلك المقام الذى يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا مايخلصهم منه وينجّيهم .

ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وماصاروا إليه من الخزى والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه .

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٤]. (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٦]. (٣) [١٩ / مريم / ٨٢].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ)

« وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بالله ورسوله وكتابه « وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ » أى : الطاعات « جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ » أى: من تحت مساكنها وشجرها، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن « خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (أدخل) أى: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ » أى : تحييهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم، كقوله تعالى[1]: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ) وقوله[2] (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم) .

ولما بيّن تعالى ما أعدّ للمشركين والمؤمنين من المآل الأخروىّ ، ضرب مثلًا للشرك والإيمان ـ بأن مآل الثانى الثبات والاستقرار لأنه الذى ينفع الناس، ومآل الأول إلى الدمار والاندحار ـ فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ)

[٢٥] (تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ » يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها «وَفَرْعُهَا» أى أعلاها ورأسها « فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا»

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٢٣و٢٤] .

أى ثمرها « كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا » أى بإرادته وتكوينه « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى : لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)

« وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ » أى : استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية « مِن فَوْقِ الْأَرْضِ » أى : لأن عروقها قريبة منه « مَا لَهَا مِن قَرَارٍ » أى : استقرار .

تنبيه :

لحظ فى الممثل به ـ أعنى الشجرة ـ أوصاف جليلة لتلحظ فى جانب الممثل له . فمنها : كونها طيبة. أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح . وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أى : راسخاً باقياً فى أمنٍ من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها فى السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها فى التصاعد ، ممّا يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب . وكون ثمرتها تجتنى كلّ حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولاريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله. ولاتخفى مطابقة هذا الممثَّل به للممثل له ـ أعنى الحق ـ وهو الإسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولمّا كان المثل مضروباً للحق والباطل فى الثبات وعدمه ، والقصد أهلهما ، صرح بهما فذلكة له ، فقال فى أهل المثل الأول :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ ، وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ، وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ)

« يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ » القول الثابت هو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و (بالقول) جوّزوا تعلقه بـ (يثبت) و (آمنوا). والمعنى على الأول: ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم فى سؤال القبر به ، وعلى الثانى فالباء سببية والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عمّا لا يليق بجنابه . و (فى الحياة) متعلق بـ (يثبت أو بالثابت) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزمخشرىّ وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذى ثبت بالحجة والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به فى الدنيا ، أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزلّوا . كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ؛ وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيّرهم أهوال الحشر . وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سُئِل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) قال : فذلك قوله تعالى (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . . .) الآية ، رواه الشيخان[1] وأهل السنن .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٤ ـ سورة إبراهيم ، ٢ ـ باب يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ، حديث ٧٢٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٧٣ (طبعتنا).

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ، لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .

وقال فى أصحاب المثل الثانى :

« وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبّتَ المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشىء فى غير موضعه ، أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها « وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ » أى : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ)

[٢٩] (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ)

[٣٠] (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ، قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا » يعنى كفار مكة . أتتهم نعمة الله وهو التوحيد والإيمان والهداية ببعثة رسولٍ من أنفسهم ، فبدلوا شكرها كفراً عظيماً وغمصاً لها « وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ » أى : ممن أضلوه وصدوه عن الهدى فتابعهم « دَارَ ٱلْبَوَارِ » أى : الهلاك « جَهَنَّمَ » عطف بيان لها « يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا » أى من الأوثان فعبدوها « لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ » أى : عن عبادته وحده « قُلْ » أى : تهديداً لأولئك الضالّين المضلين « تَمَتَّعُوا۟ » أى : بشهوات الحياة الدنيا « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣١] (قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ)

«قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ » وهو يوم القيامة « لَّا بَيْعٌ فِيهِ » أى : ليتدارك به التقصير ، أو يفتدى به « وَلَا خِلَٰلٌ » أى : مخالّة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أى لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدى به ، كما قال تعالى[1] : (وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قِبَل أن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات فيعطون بدلًا ليأخذوا مثله ، وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجرّوا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها ؛ وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبُعِثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال . أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالّة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله . انتهى .

قال أبو السعود : والظاهر أن (من) متعلقة بـ (أنفقوا) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلًّا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ، معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما ـ من أقوى الدواعى إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق فى سبيله تعالى . أو من حيث أن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن

(١) [٢ / البقرة / ١٢٣] .

ذلك فى الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيصُ التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال، وكونها مجبولة على حبّه والفتنة به. ولا يبعدأن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث أن تركها ، كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالّات . كما فى قوله تعالى[1] : (وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا) . ولما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى، وأمر المؤمنين بإقامةمراسم الطاعة شكرًا لنعمه، شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام ، حثًّا للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المخلّين بها ، الواضعين موضعها الكفر والمعاصى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ)

«ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ» أى المزن «مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ» أى تعيشون به «وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ» أى السفن «لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ» أى بإرادته «وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ» أى فتجرى حيث تشاءون من شرب وسقى وسواها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ)

«وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ» أى يدأبان فى سيرها وإنارتهما ودرئهما

(١) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات « وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » أى يتعاقبان خلفة ، لمعاشكم وسباتكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ، إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

« وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » أى ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعايشكم به . فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال .

وقال القاشانىّ : (مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) بألسنة استعداداتكم . فإن كل شىء يسأله بلسان استعداده . كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ « وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » لعدم تناهيها « إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ » أى بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء فى ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أوحق نفسه بإبطال الاستعداد « كَفَّارٌ » أى بتلك النعم التى لا تحصى ، باستعمالها فى غير ما ينبغى أن يستعمل ، وغفلته عن المنعم عليه بها ، واحتجابه بها عنه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ » أى اذكر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به تأكيد ماسلف من تعجبه عليه السلام ببيان فنٍّ آخر من جناياتهم . حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعدما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام

حيث أسكنهم بمكة، شرّفها الله تعالى، لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات . وتهوى قلوبُ الناس إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه وجعله حرمًا آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء . فكفروا بتلك النعم العظام . واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أندادًا وفعلوا ما فعلوا .

« رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ » يعنى البلد الحرام ، مكة المكرمة « ءَامِناً » أى ذا أمن . أو آمناً أهله . « وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ » أى بعّدنى وإياهم « أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ، فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ » أى كنّ سبباً فى إضلالهم . كما يقال : فتنتهم الدنيا وغرّتهم . إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإنما صدره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ، ورغبته فى استجابته « فَمَن تَبِعَنِي » أى على ملتى وكان حنيفاً مسلماً مثلى « فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي » أى فخالف ملتى « فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الغنىّ عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين إشارة إلى سبق الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)

« رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي » أى بعض أولادى . وهم إسماعيل ومن ولدمنه

« بِوَادٍ» هو وادى مكة « غَيْرِ ذِى زَرْعٍ » أى لا يكون فيه زرع «عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ » أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به « رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ » أى لكى يأتوا بعبادتك مقوَّمة فى ذلك الموضع. وهو متعلق بـ (أَسْكَنتُ) أى ما أسكنتهم هذا الوادى إلا ليقيموا الصلاة عندبيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك. وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

« فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ » أى تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً . فيأنسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع « وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ » أى فتجلبها إليهم التجار « لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» أى: نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ)

« رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ » لأن الكل خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)[1].

قال الزمخشرىّ : المعنى : إنك أعلم ، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، منا. وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها . فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذللاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ماعندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتملق العبد بين يدى سيده رغبة فى إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح. فأراد أن يذكّره فقال: مثلك لا يذكّر استقصارًا ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين . ولـكنّ ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتـكلم فيها . انتهى .

وجُوِّز فى قوله تعالى : (وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ) الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْـكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ، إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ)

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْـكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ » أى ليقوما مقامى فى الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصـلاة بعد ذهابى « إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ » أى مجيبه .

قال الزمخشرىّ : وإنما ذكر حال الـكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ،من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفرُ بالحاجة ، على عقب اليأس ، من أجلّ النعم وأحلاها فى نفس الظافر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ)

«رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » أى عبادتى . كذا فى (التنوير) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ)

« رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ » أى مجازاة العباد على أعمالهم. قرئ (ولوالدى) . بالإفراد . وكأنّ هذا قبل تبين أمره له عليه السلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ » يعنى مشركى أهل مكة . أى لا تحسبه، إذا أنظرهم وأجّلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على عملهم. بل هو يحصيه عليهم ويعدّه عليهم عدًّا . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، ووعد له أكيد ، ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد .

« إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ » أى يمهلهم متمتعين بشهواتهم ، ولا يعجل عقوبتهم « لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ » أى ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، لهول ما يرون . فلا تقرّ أعينهم فى أماكنها ولا تطرف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ)

« مُهْطِعِينَ » أى مسرعين إلى الداعى الذى يدعوهم إلى المحشر . وهذا بيان لكيفية قيامهم من قبورهم ، وعجلتهم إلى المحشر كقوله تعالى[1] (مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ) وقوله[2] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا) .

---

(١) [٥٤ / القمر / ٨] . (٢) ٧٠ / المعارج / ٤٣] .

« مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ » أى رافعيها إلى السماء « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ » أى لايطرفون. ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ » أى لاقوة فيها ، ولا ثبات ، لشدة الفزع .

قال الزمخشرىّ : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به . فقيل : قلب فلان هواء ، إذا كان جبانا لاقوة فى قلبه ولا جراءة . ويقال للأحمق أيضا : قلبه هواء . والمعنى: أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها . والأبصار شاخصة . والرؤوس مرفوعة إلى السماء . من هول ذلك اليوم وشدته وخوف مايقع فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ، أَوَ لَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ)

قوله « وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ » يعنى يوم القيامة « فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ » أى رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا « إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ » أى أمد من الزمان قريب « نُّجِبْ دَعْوَتَكَ » أى إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنى . « وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ » أى فيما دعونا إليه من الشرائع .

« أَوَ لَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم » على إضمار القول . أى فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : أولم تكونوا تحلفون « مِّن قَبْلُ » يعنى فى الدنيا « مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ » أى من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء. كقوله تعالى[1] (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ) .

---

(١) [١٦ / النحل /٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ)

« وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ » كعاد وثمود « وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ » أى بما تشاهدونه فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم « وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ » أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أى ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ)

« وَقَدْ مَكَرُواْ » أى بالنبىّ صلوات الله عليه « مَكْرَهُمْ » أى العظيم أى الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل « وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ » أى جزاء مكرهم « وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ » أى فى العظم والشدة « لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ » أى مُسَوًّى وَمُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها ، لتناهى شدته .

وجوّز فى (إن) كونها نافية واللام مؤكدة لها. والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم. على أن الجبال مثل (أى استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعه . لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً . وينصره قراءة ابن مسعود : (وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ) . وقرئ (لَتَزُولُ) بلام الابتداء أى هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتقلع من أماكنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ)

« فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ » أى من نصرهم المبين فى قوله تعالى[١] (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا) (كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ)[٢] . (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ)[٣] الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنىّ بالوعد هنا عذابهم الأخروىّ المتقدم فى قوله تعالى[٤] (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ) إلخ ولا يخفى أن الوعد قد بين فى مثل الآية الأخيرة والأولين، فى معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوثر تقديم المفعول الثانى، أعنى (وعده)، على الأول وهو (رسله) للإيذان بالعناية به . فإن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على ألسنة الرسل . فالمهمّ فى التهديد ذكر الوعيد . كذا فى (الانتصاف) .

وفى (الكشف) تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وماذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقى كما فى قوله[٥] (رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى) . « إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ » أى غالب لايما كر « ذُو ٱنتِقَامٍ » من أعدائه ، نصراً لأوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ، وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ)

« يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ » وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوَّى ، فلا يرى فيهـا عوج ولا أمت . وتبدل السموات

---

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .
(٣) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٤٢]. (٥) [٢٠ / طه / ٢٥].

بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً و (يوم) بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ (اذكر) أو (لايخلف وعده) .

« وَبَرَزُواْ » أى الخلائق أو الظالمون من أجداثهم « لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ » أى لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود: والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من (يوم يأتيهم العذاب) فإن الأمر إذا كان لواحد غلّاب ، كان فى غاية الشدة والصعوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ)

« وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ » جمع (مقرَّن) وهو من جمع فى قَرَن (بفتحتين) الوثاق الذى يربط به . أى قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى[1] : (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ) . وقال[2] : (وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ) أو: قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى[3] : (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ) أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى « فِى ٱلْأَصْفَادِ » أى القيود أو الأغلال جمع صَفَد (بفتحتين) بمعنى القيد أو الغل . والقيدُ هو الذى يوضع فى الرجل . والغُل (بالضم) ما فى اليد والعنق ، وما يضم به اليد والرجل إلى العنق . والجارّ متعلق بـ (مُقَرَّنِينَ) أو حال من ضميره أى مصفدين . وقوله تعالى :

---

(١) [٣٧ / الصافات / ٢٢] .
(٢) [٨١ / التكوير / ٧] .
(٣) [١٩ / مريم / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ)

« سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ » تشبيه لهم بأكره مايوجد منظراً عند العرب. وهو الإبل الجربى التى تطلى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران . فإنه أسود منتن الريح .

قال الزمخشرىّ : تطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهى القمص لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران ، وحرقته ، وإسراع النار فى جلودهم، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكلٌّ ما وعده الله وأوعد به فى الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لايقادَرُ قدره . وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى . والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن فى الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم: مارواه الإمام أحمد[1] ومسلم[2] عن أبى مالك الأشعرىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن : الفخر بالأحساب . والطعن فى الأنساب . والاستسقاء بالنجوم . والنياحة على الميت. والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وقد وقفت على رسالة لشمس البلغاء الخوارزمىّ أنفذها لمن شكا إليه داء الجرب . جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب . وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة. كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة. وعلة تدل على تضييع واجب النفس من التعهد.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣٤٢ من الجزء الخامس(طبعة الحلبىّ).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ١١ ـ كتاب الجنائز ، حديث ٢٩ (طبعتنا).

وعلى التفريط فى العلاج والتفقد . تنطق بأن صاحبها ضعيف المُنّة فى التوقى . أسير فى يد الحرص والتشهّى . غاشّ لنفسه . قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزيا وحياء . وتورثه خجلا واسترخاء . ينظر إلى الناس بعين المريب . ويتستر عنهم كتستر المعيب . تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس . وتنبو عن موا كلته العيون . وأقل مايصيبه أنه يحرم آلة المطاعم وهى يداه . وآلة اللقاء والزيارة وهى رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتها . ومن عجيب هباتها ، إلا أنها تشيخ الفتيان . وتمسخ الإنسان . وتجعله أمّيًّا بعد أن كان غير أمّىّ . وأعجميًّا وليس بأعجمىّ . تنفر عن نفسه نفسُه . وتهرب من فراشه عرسُه . ويتباعد عنه أقرب الناس منه . ثم هى رُبْع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أَعاذك الله من أشياء أربعةٍ : الموتُ والعشقُ والإفلاسُ والجَرَبُ

وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه ، دون سائر الأدواء ، الأقوال .

قال أبو تمام[1] :

لما رأت أختَها بالأمس قد خَرِبَتْ كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الديوان (طبعة بيروت) .

والصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

والبيت من قصيدة مطلعها :

السيفُ أصدق أنباءً من الكُتُبِ فى حَدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

يمدح بها أمير المؤمنين المعتصم بالله .

قال الخطيب التبريزىّ ، شارح الديوان :

الهاء فى (أختها) راجعة على عَمُّوريَّة . ويريد بأختها أنقرة . أى أنها لما خَرِبَتْ ، وهى أخت عموريَّة ، أعدتها بالجَرَب . والجرب يوصف بالعدوى .

وقال لبيد[١] :

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافِهِمْ ... وبقيتُ فى خلْف كجِلْدِ الأَجْرَبِ

فجعله رأس الأدواء . ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

« وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ » أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمسّ جسدهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه لكونها أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب فى باطنه ولذلك قال[٢] (تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ) ولكونها مجمع الحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره . كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة، وقد ملئوها بالجهالات . أفاده الزمخشرىّ وأبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)

« لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » الجار متعلق بمحذوف . أى يفعل بالمجرمين مايفعل ليجزى الخ . و (النفس) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام. أو عامّ للبرة والفاجرة. وعليه فيجوز تعلقه بقوله (وَبَرَزُوا۟) وما بينهما اعتراض أو بـ (ترى) « إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » أى محاسبة الخلائق يوم القيامة . لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم. كقوله[٣] (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ) أو المعنى سريع حسابه أى مجيئه كقوله[٤] (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ).

وقوله تعالى :

---

(١) ديوانه ، القصيدة : ٨ من قصيدة مطلعها :

قَضّ اللُّبانةَ لَا أَبَا لَكَ واذهبِ ... والحق بأسرتِك الكرامِ الغُيَّبِ

يرثى بها أخاه لأمه ، أربد .

يقال : خلَف خير ، وخَلْف سوء .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ٧]. (٣) [٣١ / لقمان / ٢٨] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ)

« هَـٰذَا » إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله « بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ » أى كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله « وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ » أى ليخوّفوا وليوعظوا به عن الجرائم التى أخذ بها الأولون « وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ » أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو. وإنما قدم إنذارهم لأنهم إذا خافوا ما أُنذِروا به ، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد . لأن الخشية أم الخير كله . أفاده الزمخشرىّ : (وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ » أى ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم .